الفصل الثاني

البـــــــوذية

إن الانطباع السائد في العالم عن البوذية هو أنها فلسفة في الحياة، ورغم كونها معدودة بين الأديان الكبرى، إلا أنها لا تقول بوجود الله تعالى. وهذا الانطباع ليس بصحيح تماما، فإنه من الخطأ القول بأنه لا يوجد من بين البوذيين، حتى من بين البوذيين المعاصرين، من يؤمن بالله أو يؤمن بآلهة. ورغم أن الفِرَق البوذية المشهورة اليوم مثل الماهايان (*Mahayans*) والثرافادين (*Theravadins*) تؤمن فقط بالحكمة العظمى الكامنة في الإنسان، والتي صقلها بوذا عليه السلام وبلغ بها حد الكمال، إلا أنهم يؤمنون أيضا بخرافات كثيرة، وببعض الأرواح التي صار الإيمان بها بديلا عن الإيمان بالله. والانطباع الشائع بأن البوذيين يلغون وجود الله ليس بصحيح من زاوية أخرى أيضا. فإن بحث المصادر البوذية الأولى تكشف، كما سوف نُبين، الكثير من الأدلة على أن البوذية بدأت كأية ديانة سماوية تؤكد على أهمية الإيمان بوحدانية الله تعالى.

بوذا.. كما تقدمه البوذية

أما عن مكانة بوذا (٥٦٣-٤٨٣ قبل الميلاد) بين البوذيين، فبالرغم من أنه لا يُعبد مباشرة كإله، فإنه ليس من فرق كبير بين التوقير والتقديس الذي يقوم به البوذيين تجاه بوذا وأسلوب عبادة الله الموجود في الأديان الأخرى. إنهم يوقرونه ويبدون له آيات الطاعة والولاء، وينحنون

أمام صوره وتماثيله، ويسجدون أمامها تماما كما يفعل أتباع الأديان الوثنية في العالم.

وفي الواقع.. رغم إنكار الله من جانب الكثير من البوذيين، فإنه يبدو أنهم في أعماق قلوبهم تكمن رغبة في عبادة شيء ما، وهذه الرغبة الكامنة هي التي تظهر في أسلوب تقديسهم لبوذا. ونفس ذلك الشعور المنغرس في فطرة الإنسان لعبادة الله هو الذي يدفع البوذيين إلى عبادة بوذا، أو عبادة شيء ما، إن لم يكن هو الله تعالى. ولذلك فإن البوذيين في الواقع يعبدون بوذا.. ولكن بغير أن يعترفوا بألوهيته.

ولا بد أن نذكر هنا أنه في صيغة البوذية المنتشرة في التبت.. لا يُعتبر الإيمان بوجود آلهة علوية أو أرواح فوق الطبيعة البشرية.. جزءا لا يتجزأ من الإيمان لديهم فحسب، بل إنهم يؤمنون أيضا بإمكانية الاتصال بتلك الأرواح والتخاطب معها. فإن عملية اختيار بانتشن لاما (Panchen Lama) مثلا تتطلب القيام بالعديد من الطقوس والشعائر لتلقّي الهداية من الآلهة عمّن يكون هو بانتشن لاما في المستقبل من بين المواليد الجدد في التبت.

وكثيرا ما يُزعم أن بوذا نفسه كان ينكر وجود الله، كما يعتقد أصحاب المذاهب البوذية الملحدة. وهم يؤيدون ادعاءهم بالإشارة إلى العداء الذي يُظهره الباندیت الهندوس المعاصرون تجاه بوذا، ويقولون إن هذا العداء بسبب الاحتقار الذي كان بوذا يُبديه لآلهتهم. ولا يهتم البوذيون كثيرا بتحليل الأسباب ولا العوامل التي أدت إلى سوء الفهم الذي أدّى إلى اضطهاد بوذا، بل يكتفون بالظن أن بوذا لا بد أن يكون قد رفض فكرة وجود الله كلية.

ولكن.. كما سوف نبين ونثبت بإعادة فحص بعض الحقائق من التاريخ، وبعض الأجزاء الهامة من الكتابات البوذية المقدسة، كان بوذا عليه السلام بريئا تماما من مثل هذه التهم. إلا أننا قبل كل شيء لا بد أن نقول

أيضا إن الدلائل التاريخية التي يقبلها أصحاب كل من الرأيين قليلة للغاية. غير أن هذه الصعوبة يمكن مجابهتها إلى حد كبير بالاعتماد على الأدلة الاستنتاجية.

إن الفلسفة البوذية وتعاليمها وشعائرها ظلت تنتقل مشافهة من جيل إلى جيل لمدة خمسمائة عام من بعد بوذا، سوى ما تم تسجيله على الصخور والبنايات الدينية المقببة التي صُنعت خلال فترة الحكم العظيمة التي حكم فيها آشوكا (Ashoka) بين ٢٧٣-٢٣٢ ق.م. ويجب أن نتذكر أن آشوكا قد ظهر بعد سيده الروحي بوذا بما يقرب من ثلاثمائة عام. وهذه الحقيقة في حد ذاتها على جانب كبير من الأهمية، لأن هذه الكتابات يمكن يقينا أن تكفي للحكم على فلسفة بوذا وأسلوب الحياة من وجهة نظر آشوكا. وبالإضافة.. ففي الوقت الذي لم يوجد فيه أي شيء مكتوب عن البوذية، كان آشوكا وحده هو الذي ترك وراءه قدرا من الكتابات عما ظنه من تعاليم بوذا. وأيضا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن أحدا لم يشك بتاتا في مصداقيته، ولم ينازعه فيها أحد. وعلى ذلك.. يكون ما يتبقى بعد هذا لهو بكل بساطة مجرد تفاسير مختلفة.

وفيما يتعلق بقصة بوذا.. فرغم أنها أيضا لم تُسجل كتابة إلا بعد مرور عدة قرون بعد وفاته، إلا أن جميع الباحثين يُجمعون على قبولها بغير خلاف يُذكر، إذ يبدو أن هذه المعلومات قد انتقلت من جيل إلى جيل. وعلى ذلك فإن شخصية بوذا وأسلوب حياته يبدو أن لها استمرارية.. بدأت ببوذا نفسه واستمرت حتى زمننا الحالي.

ومن هذا يكون من المنطقي استنتاج أن فهم بوذا والبوذية الذي يتفق مع هذين المصدرين.. أي حياة بوذا والكتابات على البنايات المقدسة البوذية.. هو الفهم الذي يكون أكثر قبولا. وفي المقابل من هذا.. يمكن القول برفض وجهات النظر التي تتناقض مع هذين المصدرين. غير أنه إذا تبين وجود بعض التناقضات في المصادر القديمة، فيجب أن نكون على

حذر شديد عند قبول وجهة نظر معينة ورفض أخرى.

وعند البحث الدقيق في الحياة الذاتية لبوذا يتبين أنه لم يكن يختلف عن أنبياء الله الآخرين الذين ظهروا في أماكن متفرقة من العالم. فهناك نوع من التجانس والتماثل بين شخصية وصفات الأنبياء وأسلوب حياتهم، ويمكن أن نلمح نفس تلك الصفات أيضا في حياة بوذا.

وحين نأتي إلى موضوع العقائد الأساسية للبوذية تبدأ المشاكل في الظهور بسبب التفسيرات المتباينة لما يُظن أنه قيل أو وقع. ونحن لا نتفق مع الاعتقاد الشائع أن بوذا كان ملحدا. فإننا نعتقد أن البوذية هي دين من وحي الله تعالى، لذلك فإننا نؤكد على أن مؤسس البوذية لم يكن ملحدا على الإطلاق، ولكنه كان رجلا اختاره الله تعالى بنفسه لتبليغ رسالته سبحانه إلى الناس، وأن الله تعالى اختاره بنفس الأسلوب الذي اختار به ﷻ الأنبياء الآخرين.

وقد جانب التوفيق معظم العلماء الذين كتبوا عن البوذية حين تجنبوا البحث العميق عند محاولتهم لتبرير وضع البوذية بين الأديان العظمى في العالم، إذ أنهم اضطروا إلى تغيير القاعدة العامة المتفق عليها لتعريف الدين حتى يمكن لهم أن يُدرجوا تحت هذا التعريف الأديانَ والفلسفات التي لا تؤمن بوجود الله. ويكون السؤال الملح هو: لو كانت البوذية بالفعل تنكر وجود الله وهي ليست سوى أسلوب معين في الحياة، فلماذا يوضع هذا الأسلوب الحياتي الذي يبدأ بإنكار الله ضمن مجموعة الأديان التي تؤمن بوجود الله؟ أما فيما يتعلق برأينا في الموضوع فإن مثل هذا التساؤل ليس له مكان على الإطلاق، فإننا نرفض أن تكون البوذية مجرد فلسفة وألا تكون من الله تعالى. ولتأييد ما نقول.. فإننا سوف نعتمد على نفس المصادر المعتمدة لدى البوذيين أنفسهم، والمقبولة لديهم، وسوف نبرهن على أن التفسير الذي نأخذ به هو الأولى بالقبول، لأنه يقوم على أساس صحيح ومتين. ونحن نكرر بأن البوذية ليست نشازا بين الأديان، بل على

العكس.. إن الملامح الأساسية التي تتصف بها.. على اتفاق تام مع بقية الأديان السماوية.

أما الاعتقاد الخاطئ باعتبار البوذية فلسفة إلحادية في أصولها، فيرجع إلى علماء الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهم الذين استقوا معلوماتهم عن البوذية عن طريق الترجمات للكتابات البوذية من لغة بالي (Pali) التي قام بها علماء بوذيون سمحوا لأفكارهم الفلسفية الملحدة وتعصباتهم الخاصة أن تؤثر على ترجماتهم. والقليل منهم كان يعرف لغة بالي، وهي لغة المواد الأصلية التي ترجموها. وبالإضافة.. بدلا من أن يستخلص العلماء الغربيون استنتاجاتهم مباشرة من دراسة المصادر البوذية المعتمدة، اعتمدوا على المعتقدات البوذية المنتشرة بين المذاهب البوذية الكبرى.

وعلى عكس هذا الاتجاه السائد بين العلماء الغربيين، انطلق صوت منفرد في الهند كان صوت حضرة مرزا غلام أحمد من قاديان (١٨٣٥-١٩٠٨)، الذي قدم وجهة نظر مخالفة على طول الخط. فقد كان يرى أن بوذا عليه السلام كان يؤمن إيمانا راسخا بوجود الله تعالى، وأنه سبحانه هو بنفسه الذي أقامه رسولا له برسالة معينة ليؤديها. وقد أوضح أن بوذا، كغيره من الأنبياء، كان يؤمن بوجود الشيطان وكان يؤمن أيضا بالجنة وبجهنم وبالملائكة وبيوم البعث. وعلى ذلك فإن الادعاء بأن بوذا لم يكن يؤمن بوجود الله ليس إلا من نسج الخيال. لقد رفض بوذا أن يقبل عقائد الفيدانتا *Vedanta* (أي العقائد والتعاليم الموجودة في الكتب المقدسة الهندوسية، الفيدا) ورفض التجلي الجسدي للآلهة كما في الهندوسية. وكان ينتقد براهما بشدة، ويعتبر أنهم هم الذين أفسدوا تعاليمهم السماوية من خلال تفسيراتهم الفاسدة.

وكان من المقدر لصوت حضرة مرزا غلام أحمد ألا يبقى وحيدا لزمن طويل، إذ لم يلبث أن تبعته أصوات عديدة من بين الجيل الثاني

للعلماء الغربيين، والباحثين الذين تخصصوا في دراسة البوذية. وكان أكثر هؤلاء شهرة هو العالم الفرنسي الكبير الدكتور غوستاف لو بون (Dr. Gustav Le Bon 1841-1931) الذي كتب قائلا:

"مما يؤسف له أن العلماء الأوربيين قد أهملوا تماما دراسة الآثار الهندية. إن المتخصصين في الدراسات الهندية الذين علمنا منهم عن البوذية، لم يحدث لهم أبدا أن زاروا الهند. إنهم درسوا هذه الديانة من الكتب فقط، ومن سوء الحظ أن ألقت الصدف إليهم ببعض الكتب الخاصة ببعض المذاهب الفلسفية، تم تدوينها بعد خمسة أو ستة قرون من بعد وفاة بوذا، وكانت تلك الكتب غريبة تماما عن الديانة المتبعة في الواقع. إن التأملات الفكرية الميتافيزيقية التي أدهشت الأوربيين بمدى عمقها لم تكن في الواقع شيئا جديدا. فمنذ أن تم دراسة كتب الهند بشكل أفضل، تبين أنها موجودة في كتابات الفرق الفلسفية التي تكونت خلال العهد البراهمي".[١]

ويبدو أن الدكتور لو بون كان على حق تماما في نقده حتى الآن، ولكن كما يبدو من المقطع التالي، فإنه نفسه ارتكب نفس الخطأ ولم يستق عقائد البوذية الحقيقية كما هي موجودة ومدونة في الرقائق – وهي التي لم تذكر بتاتا أن البوذية كانت وثنية. يقول الدكتور لو بون:

"إنه ليس في الكتب، ولكن في الآثار التي يجب أن يدرسها المرء ليعرف كيف كانت البوذية. فمن الغريب حقا أن ما تقوله الآثار يختلف تماما عما تخبرنا به بعض الكتب. إن الآثار تبرهن على أن هذه الديانة التي يريد علماء العصر الحديث تصويرها على أنها طقوس إلحادية.. كانت على النقيض من ذلك ديانة من أكثر الديانات إيمانا بتعدد الآلهة" *.[٢]

إن الجملة الأخيرة في هذا المقطع هي التي جانبت الصواب كما سوف نبين حاليا.

---

* كل من هذين الاقتباسين من الكتاب الأصلي للدكتور لو بون قد تمت ترجمته بأمانة من اللغة الفرنسية. منه

بعد الدكتور لو بون جاء عالم مشهور آخر اسمه آرثر للي (Arthur Lillie) استطاع أن يخرج باستنتاج مختلف تماما، نتيجة للدراسة المتفحصة التي قام بها للمخطوطات على رقائق آشوكا. وقد استشهد بالكثير منها في كتابه: *India in Primitive Christianity*. ولا يغيبن عن البال أن هذه المخطوطات لم تكن مطبوعة فقط على الرقائق التي جُهزت خصيصا لهذا الغرض، وإنما تم اكتشاف هذه المخطوطات محفورة على صخور ضخمة أيضا، موجودة على الطرق الرئيسة، وأيضا على الطرق التي يسلكها التجار. ونقدم فيما يلي مثالين من هذه المخطوطات، من الترجمة التي قام بها الدكتور للي.

على الضفة الشرقية من نهر كاتاك Katak وعلى مسافة عشرين ميلا من جَغَنْ ناث Jagan Nath توجد صخرة ضخمة تُسمى باردولي Pardohli كُتب عليها:

"إن الرغبة الشديدة في نوال أمور الدنيا معصية. وأعلن مرة أخرى أن الطموح الدؤوب لأمير في فرض سيطرته لا يقل معصية، وهو موضع سخط السماء مهما سعى لاسترضاء السماء. اعترِفْ وآمنْ بالله (إسعانا Is'ana) الذي يستحق أن يُطاع. وإني أعلن لكم أنكم لن تجدوا وسيلة أخرى تساوي هذا (المعتقد) لاسترضاء السماء. جاهدوا لتحصلوا على هذا الكنْز الذي لا يمكن تقدير قيمته".[٣]

إن لفظ "إسعانا" المذكور في هذا المخطوط هو اسم شيفدفتا ShivDevta أي الله تعالى (انظر القاموس السينسكريتي/الإنجليزي لشيفرام آبت Shivram Apte).

وعلى الرقيقة السابعة يقول نفس الكاتب:

"هكذا تحدث دفانامبيا بياداسي Devanampia Piyadasi: ''ومن ثم ابتداء من هذه الساعة قمت بتبليغ ونشر أحاديث دينية كثيرة، وعينت ملاحظين في أمور الدين الذين إذا استمع لهم الناس فإنهم يهتدون إلى

الطريق الصحيح ويقدسون الإله* إسعانا"".[٤]

ويتضح بجلاء من هذه المقتبسات أن المصادر القديمة تُصَور بوذا على أنه إنسان مؤمن أوقف نفسه لتقديس الله تعالى (رحمه الله ورضي عنه).

المصدر الثاني في درجة المصداقية هو الكتابات البوذية التي تم تدوينها بعد مرور خمسمائة عام بعد بوذا. وهذا أيضا يحتوي على الكثير من الأدلة على أن بوذا لم يكن ملحدا ولا زنديقا، ولكنه كان في الحقيقة مؤمنا مخلصا بالله تعالى. ونحن نشير بالتحديد إلى مخطوطات ثرافادا *Theravada* المعروفة باسم تريبيتاكا *Tripitaka* (أي السلال الثلاث)، التي.. كما يشير الاسم.. تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، اسم الجزء الأول منها: فينايا- بيتاكا *Vinaya-Pitaka* (أي قواعد السلوك)، ويسمى الجزء الثاني سوتا-بيتاكا *Sutta-Pitaka* (أي محاورات عن الحقيقة)، والجزء الثالث يسمى أبهيضاما- بيتاكا *Abhidhamma-Pitaka* (أي تحليل الدين).

وفي "سوتا نيبتا" يوجد فصل يسمى: الفصل عن الذهاب إلى الشاطئ البعيدْ، وفيه شرح عن هدف التغلب على الموت. ويقول بوذا إن المولد والممات لا يعنيان شيئا لهؤلاء الذين استطاعوا أن يتغلبوا على أنفسهم وذواتهم، وبذلك يكونون في وحدة مع الله. ومن الممكن إساءة فهم هذه العبارات ويختلط فيها الفهم بالعقيدة البراهمية "موكتي *Mukti*" أي الخلاص، ولكن هذا غير صحيح.. فإن بوذا يتحدث هنا بوضوح عن هؤلاء فقط الذين تم لهم العبور إلى الجانب الآخر من الحاجز، هنا على الأرض.. وفي هذه الحياة.. قبل موتهم. وهذا يعني ببساطة أن رأيه هو أن أحدا لا يستطيع أن ينال الحياة الأخرى ما لم يختبرها ويجربها أثناء حياته هنا على الأرض، وهذا تعليم يشابه التعليم القرآني. وهكذا كان بوذا يعظ الناس بأن من تتوحد إرادته مع إرادة الله تعالى، فإنه يسمو فوق الحياة، وفوق الموت، وينال الأبدية.

---

* إن استعمال كلمة الإله في صيغة المفرد له دلالة هامة. منه

وفي نهاية الفصل يتحدث بينجيا Pingiya وهو أحد أتباع بوذا، واصفا عظمة سيده الذي كان وسيلة وسببا لاعتناقه البوذية. وذلك بعد أن شرح كيف أنه قد بلغ به العمر عتيا.. وصار على عتبات الموت. ختم بينجييا حديثه بالعبارة التالية:

"وبكل تأكيد فإني سوف أذهب إلى من لا يتزعزع ولا يهتز، من لا كُفُوَ له في أي مكان. إنني على يقين من هذا حتى ولو اعتبرتموني رجلا فقد عقله".[٦]

وهذا يوضح الأمل والتوقع لدى أحد تلاميذ بوذا، أنه بعد موته سوف يلاقي ربه، الذي وصفه بأنه صمد لا يتزعزع ولا يهتز وليس له من كفو أحدٌ. ومن الواضح أن هذا الوصف يتفق أيضا مع وصف الله الذي جاء في الكتب المقدسة الأخرى.

وهناك أمر آخر مثير للاهتمام، ويلقي ضوءا أكثر وضوحا على معتقدات بوذا، وهو موجود في سوتا-بيتاكا، وهو الجزء الثاني من مخطوطات تريبيكاتا المقسمة في خمسة كتب تحتوي على الكثير من محاورات بوذا. والسيدة ت.و. رايز دافيدس *Mrs. T.W. Rhys Davids* رئيس جمعية مخطوطات لغة البالي قامت بترجمة بعض هذه المحاورات إلى اللغة الإنجليزية، وهناك سلسلة من الكتب تحتوي على هذه الترجمات تسمى: كتب البوذيين المقدسة *Sacred Books of the Buddhists*. وفي المحاورة رقم ١٣ من الجزء الثاني بعنوان تيفيجا سوتا *Tevigga Sutta* ما يتعلق على وجه الخصوص بموضوع كيف يمكن للإنسان أن يهتدي إلى الله.

وعند الإجابة على هذا السؤال نجد أن بوذا قد استبعد أولا أن أحدا من رجال الدين الهندوسي في زمنه كان يصلح لهداية الإنسان إلى الله تعالى، ثم بدأ يجيب على السؤال كما يفهمه هو. وإنه من المثير حقا معرفة خلفية الزمان والمكان اللّذين حدثت فيهما هذه المحاورة. إذ يُقال إنه

كانت هناك في الأزمنة الغابرة قرية للبراهمة تسمى ماناساكاتا *Manasâkata*. وكانت هذه القرية تقع في أجمل منطقة في البلاد بجوار نهر جميل. وقد ذاع صيت هذه القرية في كل مكان لأنها كانت مركزا للمذاهب المختلفة في الديانة البراهمانية. وكان خمسة من هؤلاء البراهمة بالذات على جانب كبير من العلم، وكانوا قادة للمدارس الفكرية التي تتبعهم. وقد حدث أن نزل بوذا أيضا عند ذلك النهر، وكان في معيّته بعض تلاميذه المقربين. وبدأت الأنباء تنتشر عن وصول بوذا، وبدأ الناس يأتون لزيارته حتى يستنيروا بأفكاره ويسمعوا عن البوذية من شفتيه.

ومرة كان اثنان من رجال القرية يتجولان بعد أن قاما بالاستحمام في النهر، وكان اسم أحدهما فاسيتها *Vâsettha* والآخر يسمى بارادفاغا *Bharadvaga*. وقد راحا يناقشان معا إحدى العقائد الدينية. ولم يستطع أي منهما أن يقنع الآخر بصحة وجهة نظر الجورو.. أي المعلم.. الذي يتبعه. واقترح فاسيتها.. وهو البراهمان الشاب.. أن يرفعا الأمر إلى ساحة بوذا. ولما اتفقا على هذا توجها لعرض الأمر على بوذا طلبا لرأيه الحكيم. وخلال الاجتماع.. ظل بارادفاغا البراهمان الشاب صامتا، بينما راح فاسيتها يوجه الأسئلة. وقبل أن يجيب بوذا على الأسئلة، وجه هو الآخر في المقابل بعض الأسئلة.

وسأل بوذا أولا: هل حدث أن أحدا من البراهمة المتمرسين في معرفة علوم الفيدا الثلاثة رأى "براهما" وجها لوجه؟ وكانت الإجابة: "لا". وحينئذ سأل بوذا فاسيتها: هل كان أحد من البراهمة أو تلاميذهم في الأجيال السبعة السابقة قد رأى براهما، وكانت الإجابة مرة أخرى: "لا". ثم سألهم بوذا: هل ادّعوا بأنفسهم أنهم رأوا براهما؟ فكانت الإجابة مرة أخرى: "لا". وحينئذ سأل بوذا فاسيتها: إذا كان رجل قد نشأ وتربى وعاش في قرية ماناساكاتا، ثم سُئل عن الطريق إلى ماناساكاتا، فهل يكون ذلك الرجل في شك أو يجد أية صعوبة في الإجابة على هذا السؤال؟

فأجاب فاسيتها:

"كلا بالتأكيد يا جوتاما. لماذا؟ إذا كان رجل قد وُلد ونشأ وعاش في ماناساكاتا، فلا بد أن كل طريق يؤدي إليها يكون معروفا تماما لديه".

وعند تلك النقطة استرسل بوذا قائلا:

"يا فاسيتها.. إن ذلك الرجل الذي وُلد وعاش في ماناساكاتا قد يصيبه الشك أو قد يجد صعوبة في الإجابة إذا سئل عن الطريق إليها، ولكن التثاجاتا *Tathâgata* (أي الشخص المستنير، يقصد نفسه) حينما يُسأل عن الطريق الذي يؤدي إلى عالم براهما فإنه لا ينتابه شك ولا يلقى أية صعوبة. يا فاسيتها.. إنني أعرف براهما جيدا وأعرف عالم براهما والطريق الذي يؤدي إليه. نعم.. إنني أعرفه تماما كمن دخل عالم براهما بل وولد في داخله".[٧]

كانت حجة بوذا أن القاطنين في قرية ماناساكاتا لا بد لهم من معرفة جميع الطرق المؤدية إليها، وكل من يدعي أنه من الله لا بد له من معرفة الطريق الذي يؤدي إليه سبحانه وتعالى، إذا كان بالفعل قد جاء من عند الله وكان يعرفه تمام المعرفة. ولكن الإجابات على الأسئلة المقابلة لبوذا تُبين بوضوح أن أحدا من الجورو لم يكن قد رأى الله ولا كانت له بالله صلة ولا أية معرفة خاصة، وبالتالي فإن هوية الله كانت بالكلية خارج نطاق مفاهيمهم. وحتى هذه النقطة من المحاورة.. فقد يُسيء البعض فهم وجهة نظر بوذا لتعني أن بوذا كان يعلن عدم وجود الله.. لأن أحدا لم يقابله ولم يره. وفي الواقع فإن المترجمة في مقدمتها قد ذكرت أن ما جاء بعد هذه المحاورة هو ما يلي:

"... إنها كانت محاورة افتراضية. إذا أردت أن تتحد مع براهما – الأمر الذي من الأفضل ألا تتمناه – فإن هذا هو الطريق الذي يوصلك إليه".[٨]

ولكن هذا التحليل للمحاورة يثبت الفشل الكامل من جانب المؤلفة لفهم ما كان يريد بوذا إثباته بكل يقين. وهذا يوضح كيف تأثر بعض الباحثين بمعتقدات الرهبان البوذيين الذين أساءوا دراسة الحملة البطولية

التي خاض بوذا غمارها ضد البراهمة من معاصريه. إن الذي كان يرفضه بوذا بكل شدة هو تفسيراتهم الخرافية ومعتقداتهم عن تعدد الآلهة الذين لم يروهم ولم يسمعوا شيئا منهم. غير أن إجابة بوذا لم تنته عند هذا الحد، بل راح يقول إنه بالنسبة لتثاجاتا (أي الشخص المستنير) لا توجد أية صعوبة في توضيح طريق الهداية الموصل إلى الله. ثم استمر في الحديث ليعلن أنه هو نفسه كان ذلك الشخص الذي يستطيع أن يهدي الإنسان إلى طريق الله، لأنه كان على صلة به عز وجل، وأنه جاء من لدنه.

ولا بد أنه قد صار من الواضح حتى الآن أن بوذا كان على إيمان بوجود الإله الأعظم، وأنه قد جاء من عنده. وكان يعرفه ﷻ أفضل مما كان يعرف سكان ماناساكاتا قريتهم التي عاشوا فيها والطرق المؤدية إليها. وهنا يؤكد بوذا لنفسه على حياة من الوصال الدائم بالله، وهي حالة أسمى في مقام القرب من الله عن مجرد تلقي الوحي منه. وقد أعلن الكثير من الأنبياء العظام أنهم بلغوا مثل هذا المقام، ونالوا الحياة الأبدية في جنب الله هنا على هذه الأرض، حتى من قبل أن ينقلهم الموت إلى حياة العالم الآخر. إنهم وجميع رسل الله تعالى يشتركون في هذا الوصال الأبدي بالله تعالى، ولم يكن بوذا استثناء من ذلك. وقد كان بوذا يستخدم لفظ براهما في الحديث عن الله تعالى، لأن هذا اللفظ هو الذي كان شائعا بين الهندوس، وهو الذي كانوا يستخدمونه في الحديث عن الإله الأعظم بين آلهتهم الأخرى. ومع استمرار المحاورة يصبح الموقف أكثر وضوحا:

"وعندما قال هذا، قال فاسيتها، البراهمان الشاب، للسيد المبارك:
هكذا قيل لي يا جوتاما أن سامانا جوتاما يعرف كيفية تحقيق الوصال ببراهما. حسنا! فليتفضل جوتاما المحترم ويبين لي كيفية تحقيق الوصال ببراهما، وليتفضل جوتاما المكرم بإنقاذ الجنس البراهماني".[٩]

حينما استمع بوذا إلى فاسيتها لم يستنكر دعوته ولا تمنياته بالنسبة لبراهما، ولم يعتبرها غير حقيقية وبلا معنى، مما يدل بجلاء على موافقته عما

قيل عن تحقيق التواصل ببراهما وصلته بمن يختارهم الله ﷻ.

وبالنسبة لمن يستجيب لدعوة الله تعالى، بصرف النظر عن جنسه، فإن الطريق إلى الله يُجعل سهلا له. وبالنسبة لمن يخشى الله، فإن جميع الأهواء الإنسانية من غضب وغيرة وتعصب وما إلى ذلك، لا تتمكن من الاستيلاء عليه. وحينما يتجاوزها المرء فإنه يستطيع أن يتخلق بالصفات الربانية ويكتسبها. إن هذه المحاورة بأكملها تستحق اهتماما خاصا من هؤلاء الذين يريدون أن يفهموا سلوك بوذا نحو الله تعالى.

وعلى هذا.. لماذا أساء أتباع بوذا فهمه؟ قد توجد الإجابة على هذا السؤال في تاريخ البوذية القديم، والنـــزاع الذي نشب بين الدين الجديد الذي أتى به بوذا، والدين القديم الذي كان يتبعه البراهمة الذين نسبوا إلى بوذا عقائدهم التي كانوا يؤمنون بها، وهو سلوك ليس بمستبعد من رجال الدين، أو لعلهم أساءوا فهمه ولكن ليس بنيّة سيئة. ومن الممكن أيضا أن تكون الحرب التي شنها بوذا على الوثنية التي كانت شائعة في ذلك الوقت بين البراهمة، قد أثارت غضبهم وعداوتهم فاتهموه بإنكار وجود الله. ولا بد أن هذه الدعاية قامت بها الطبقة القوية من البراهمة ذوي النفوذ، فكانت أصواتهم من الشدة والقوة بحيث أغرقت في غمار تشويشها وعداوتها أصوات بوذا.

وعند الأخذ في الاعتبار ظروف الزمن من صعوبة الاتصال، وندرة إمكانات الكتابة والتدوين، فليس من المستبعد أبدا أن تكون هذه الدعاية قد وجدت آذانا صاغية.. ليس بين الهندوس فحسب، بل إنها أثرت أيضا على أتباع بوذا، إلى أن صار هؤلاء يعتقدون أيضا أن رفض بوذا واستنكاره للآلهة المتعددة لدى الهندوس.. هو رفض كامل لكل الآلهة بما فيهم الإله الأعظم. وهكذا جُعل استنكار جوتاما بوذا لآلهة البراهمة عاما وشاملا، مما جعل الكثيرين يقولون إنه لم يكن يؤمن بأي إله على الإطلاق.

أما فيما يتعلق بولاء هؤلاء الأتباع لبوذا، فقد استمر هذا الولاء بغير أن يتأثر. لقد قبل هؤلاء الأتباع معلمهم بوذا باعتباره أحكم حكماء زمانه، العطوف.. المحب.. الكريم. ونحن نتحدث هنا عن زمن كان التعليم فيه في أدنى وأحط دركاته، وكان عامة الناس يكتسبون معلوماتهم، ويتخذون قراراتهم، معتمدين على سماع الأقاويل والإشاعات والحكايات، فمن الممكن جدا أن يكون أتباع بوذا أنفسهم قد تأثروا بالدعايات التي رَوّجها البراهمة، ولكنها لم تؤثر كثيرا على مدى ولائهم له. إذ كان من الكافي لهم أن يكون بوذا هو المصدر الكامل للحكمة والمعرفة. ولهذا فقد كانوا يحترمونه ويبجلونه، واستمروا في اتّباعه من صميم قلوبهم، واعتباره معلمهم الحكيم المحبوب. ومع مرور الوقت.. وشيئا فشيئا وبلا شعور.. إذا بهذا الذي كان يُعتبر المعلم الملحد، ينال التوقير والتبجيل والإجلال كالإله نفسه.

إن هذا لم يحدث للمرة الأولى في تاريخ الأديان. فكم حدث للأنبياء والرسل أن اتخذهم الناس آلهة من دون الله، وكم من البشر نال من التبجيل والتعظيم ما لا يجوز إلا لله تعالى. وفي حالة بوذا أيضا.. ظل هو البؤرة التي تَرَكَّزَ فيها حبُّ الناس.. باعتباره المثال الإنساني الكامل، ولذلك لم يوضع في مقام آلهة الميثولوجيا. وكان مما يكفي الناس أن يضعوا البراهمة جميعا على جانب، ويضعوا بوذا على الجانب الآخر. فالبراهمة كانوا يعنون بالنسبة لهم آلهة الأساطير وقصص القدماء، بينما كان بوذا تجسيدا للحق والحكمة والعقل. وبالتدريج.. ومع مرور الوقت.. استخلصت البوذية لنفسها طابعا لا دور فيه للآلهة الأسطورية. ولإشباع الدافع الفطري في الإنسان للإيمان بالله، تَحَول التبجيل والتعظيم لبوذا إلى نوع من العبادة لصُوَره وتماثيله. وهكذا تحول بوذا.. الذي كان في أعين أتباعه في القرن الرابع قبل الميلاد.. مجرد ينبوع للحكمة، إلى مكانة أكبر مما يمكن أن يحتلها الفلاسفة العلمانيون. فعند هؤلاء.. لم يعد بوذا مجرد

رمز للحق والحكمة لأمد طويل، بل بدأ ينال من الإجلال والتعظيم والتوقير ما هو من حق الله وحده، أو الآلهة التي تعظمها بعض الأديان.

ونحن لا نتحدث هنا عن فترة قصيرة من سنوات قليلة لهذا التحول، بل لعل الأمر استغرق قرونا طويلة حتى أخذ الإلحاد يلقي بظلاله المشؤومة على جانب كبير من عالم البوذية، ولعل الأمر استغرق أيضا قرونا طويلة للبوذيين لكي يجعلوا من بوذا إلها، بغير أن يعترفوا رسميا بألوهيته. إن الأسلوب الذي نقول إنه قد تم ليتحول أتباع البوذية من الإيمان بالله إلى ملاحدة.. ليس مجرد حدس ولا تخمين، فإن دراسة المصادر البوذية كما أوضحنا، تؤيد يقينا أن بوذا عليه السلام كان يؤمن بخالق واحد أعظم، وأن ما رفض الإيمان به هو تعدد الآلهة. هذه هي الصورة الحقيقية لبوذا، التي عاشت دون أن تتلطخ خلال القرون الثلاثة الأولى رغم الجهود الكثيرة التي بذلها أعداؤه. وهنا نلفت أنظار القارئ مرة أخرى إلى عصر الملك البوذي العظيم آشوكا، الذي حكم إمبراطورية بوذية كبرى امتدت إلى ما وراء حدود الهند، وشملت أفغانستان بأكملها. إن هذا الملك هو الذي يملك المصداقية، والحقيقة التي تخلو من كل شك، عن تعاليم وأساليب حياة بوذا. وليس هناك أية ظلال من شك في أن الصورة التي قدمها آشوكا لبوذا، كانت هي صورة نبي من أنبياء الله، الذي كان يقيم عناصر دينه على الوحي الإلهي، وأن ما قدمه بوذا للناس كان هو ما أُمِر به من الخالق الأعظم. إن هذا الحكم الذي قضى به آشوكا.. هو الذي بقي خالدا.. محفورا على صخور التاريخ.

زهد أم هروب

إن نبذ الدنيا، وقطع العلاقات الدنيوية، تعتبر في البوذية هي أعظم الوسائل لإطلاق حرية النفس من الكرب والبؤس. والناسك الزاهد وحده.. هو الذي يستطيع أن يفهم المشاكل التي تتعلق بالصراعات بين الروح والإغراءات الدنيوية في الحياة. وما لم يكن الإنسان يتمتع بصفات

فريدة من الصبر والتصميم، فإن هذا التحدي يبدو من المستحيل التغلب عليه. ولكن الأمل الوحيد للنجاة الذي تقدمه البوذية هو فقط النجاح في هذا التحدي. فالتخلي الكامل عن كل ما تقدمه الحياة، والانعزال التام عن جميع مُتع الحياة، هو الطريق الوحيد للوصول إلى نيرفانا، أي السلام الأبدي. ولذلك فإن إنكار جميع المشاعر والعواطف يعتبر عند البوذيين هو الحقيقة المطلقة. إن الطمع في الحصول على الثروة المادية، أو الرغبة في الحصول على السُلطة، أو حتى الحصول على حب الآخرين، عندما لا يتحقق، فإنه لا يُنتج سوى الألم والإحباط لدى الشخص المحروم. كذلك فإن الكراهية أيضا تدمر سلام النفس. وكل هذه القوى تضعف القوى الروحية في الإنسان. ولأنه لا يمكن تغيير طبيعة الإنسان الغريزية، ولا يمكن التخفيف من رغبته في امتلاك المزيد والمزيد، فإن الرضا الكامل، والقناعة التامة، لا يمكن تحقيقها إلا بقطع كل العلائق مع المادة.

هذه بالنسبة للبوذيين هي نقطة البداية في رحلة طويلة للتخلص من متطلبات الذات، والوصول إلى الهدف النهائي وهو النجاة. وعلى المرء أن يمسك عن كل ما تقتضيه الحياة لتحقيق راحتها من النواحي المادية. إنه صراع من الحرمان يتعلق بالحواس الخمس. حرمان لما تريد العين أن تراه، وما تشتاق الأذن سماعه، حرمان من اللمس، من الشم، حرمان من كل ما يحرك قلوب البشر. إنهم يسعون لاجتناب جميع أخطار الإدمان بالابتعاد عن كافة الظروف التي يمكن أن تُشكل تهديدا يجعل الإنسان مكبلا بحبال العبودية للمؤثرات المادية. وباختصار، فإن فكرة البوذية عن تحقيق سلام النفس من خلال الحرمان، هو مسمى آخر للهروب من الحياة. فالحياة هي المشكلة، والموت هو الحل.

وبدلا من محاولة الكفاح من أجل التغلب على الدوافع الرخيصة، وإخضاع شهوات النفس لسُلطة الروح، فإن الروح هي التي تؤمر بالتقهقر والانسحاب من ساحة الحياة على الأرض. إذ أنهم يظنون أن كل

ما ينتج عن رغبات الذات هو منحط، ومادي، وخسيس، ويجب التضحية به من أجل خير الذات. إن سلام النفس الذي يتحقق بهذا الأسلوب الهروبي لا يختلف كثيرا عن الموت، أي إلغاء الحياة.

إن السلام يمكن أن يكون ذا نوعين. والموت أيضا يمكن أن يُعتبر نوعا من السلام؛ حتى إن تحديد الخط الفاصل بين الموت والسلام.. أمر صعب. فمثلا يمكن توضيح الأمر بالمقارنة بين الرضا بالهزيمة والإذعان لوضعٍ مخزٍ والرضا بالانتصار. إن الرضا بالنصر وسكون الاستسلام.. رغم تشابههما إلا أنهما في الواقع على طرفي نقيض، فإن أحدهما حياة والآخر موات. وفي بعض الأحيان، تكون تعاريف وتصانيف الأديان من الصعوبة بمكان، بسبب عوامل الغموض المصاحبة. وكل ديانة فيما يبدو تدعو لنفس الهدف من تحقيق السلام وطمأنينة القلب، غير أن البعض يُفضل الاستسلام للموت بهدوء، على الموت في سبيل هدف سام ونبيل. وهناك أولئك الذين يرفعون شعار الحرب المقدسة ضد الشر مهما كان الثمن، وبشجاعة كاملة يُواجهون كل ما يمس الفضائل ويهزمونه هزيمة نكراء، ويكون السكون والهدوء الذي يتبع ذلك هو النيرفانا الحقيقية.

وبعض الأديان.. مثل البوذية التي أصابها الانتكاس.. تدعو أتباعها إلى تحقيق السلام في مرفأ الهروب. إنها تُعَلم الهروب من كل أنواع المغريات التي يمكن أن تجذب أولئك الأتباع إلى رغباتهم الطبيعية ونوازعهم الفطرية ودوافعهم الإنسانية. فالبوذي ينسحب إلى الأمان الذي يجده داخل نفسه – وهي حالة يصفها البعض بأنها نوع من الخواء – بينما يصفها البعض الآخر بأنها خلود يمكن أن يكون بلا معنى. فهل يتحدثون عن الله؟ إن الإنسان ليعجب! ولكن الآراء تختلف. الأغلبية تظن أن هذه الحالة يمكن أن يفهمها ويشاركها هؤلاء الذين وصلوا إليها فقط. فإذا لم تكن هي الوصول النهائي إلى عتبات الله تعالى، ومعظم علماء البوذية سوف يمتنعون عن الإقرار بوجود الله بأي شكل من الأشكال، فحينئذ يكون التعريف

المعقول لهذه الحالة من الخواء والفراغ التي يصل إليها البوذي.. هي حالة من الفناء المطلق والموت الكامل.

وباختصار.. إن حرمان النفس المطلق من كل الدوافع المتعلقة بالحواس الخمس التي هي الحياة.. يتم من أجل اكتساب سلام النفس أو النيرفانا. وبطبيعة الحال.. فإن جميع الأتباع لا يستطيعون الوصول إلى هذا الهدف في وقت واحد، ولكن عليهم أن يستمروا في سعيهم للوصول إليه خطوة فخطوة، تماما كما يكون الاقتراب من هاوية الهلاك.

ولزيادة إيضاح هذه النقطة دعونا نذكر قصة نرى أنها تصلح لمساعدة القارئ في فهم ما نشير إليه. إذ يُحكى أن متسولا في كشمير.. كان نصف ناسك ونصف متسول، فقد كان يتسول أقل ما يكفي من ضرورات الحياة ولا أكثر. وكان كثيرا ما يُرى جالسا وهو مستغرق في تأملاته وشارد في هواجسه، وقد راح يغوص في أعماق نفسه باحثا عن شيء ما. وفي ذات يوم.. مر به أحد الحكماء، وفجأة لاحظ أن المتسول لم يعد هو نفس الشخص الذي كان يعرفه، فقد كان منتشيا من السعادة وهو يرقص طربا. وتساءل الحكيم:

"بابا.. لماذا هذا التحول الكبير؟ يبدو أنك لم تعد نفس المعوز الذي كنته من قبل، فما الذي حققته حتى تكون سعيدا بهذا الشكل؟ هل عثرت على كنـــز؟"

فأجاب المتسول: "نعم.. عثرت على كنـــز لا مثيل له ولا يمكن تقدير قيمته، فلماذا لا يبتهج الإنسان ويسعد بتحقق كل أمنياته؟"

ولما سمع الحكيم هذه الإجابة راح يستفسر:

"إنك ترتدي نفس الأسمال والخرق البالية، وتكسوك الأتربة من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك كما كان حالك دائما، فكيف تدعي بأن كل أمنياتك قد تحققت؟"

ولكن المتسول أسكته بإشارة من يده وهو يتفرس في وجهه بنظرة

تفيض حكمة وقال:

"لا تنس يا سيدي أن الإنسان يستطيع أن يحقق كل أمنياته.. حينما لا تكون له أية أمنيات على الإطلاق. وهذه هي اللحظة العظيمة التي حررت فيها نفسي. فاذهب عني واتركني لأرقص سعادة وطربا".

كانت هذه هي الإجابة الجميلة التي تركت الحكيم في حيرة وارتباك لا يعرف معه كيف يرد. ولكن.. حينما نعيد النظر في هذه الإجابة.. نكتشف أن جمال هذه العبارة هو بقدر خوائها من كل مضمون. إذ لم يحدث أي تغيير خارج نطاق العالم المحدود لنفس هذا المتسول. أما العالم الخارجي الذي يعيش فيه، فقد ظل هو نفسه عالم البؤس والمعاناة والألم. إن العالم من حوله ظل هو نفسه عالم الظلم والاستبداد والاضطهاد والطغيان. وبالإضافة.. فهو لا يزال في احتياج إلى ما يقيم أوده ويُبقي على حياته، فالطعام والماء والهواء لا تزال أمورا ضرورية بالنسبة له، ولا يمكن الاستغناء عنها تماما كما كانت الحال من قبل. نعم.. إن الإنسان قد يستغني عن الأمنيات التي يرغبها، ولكنه لا يستغني عن الضرورات التي يحتاج إليها. ومهما كان التغيير الذي تم تحقيقه.. فقد تحقق داخل نفسه، ولكن من يدري أن هذا التغيير سوف يبقى إلى الأبد. لعلها كانت لحظة قصيرة من الانتصار على النفس. ولكن إذا هبت عليه رياح باردة في ليلة يتخللها الصقيع المتجمد، فلعله يتمنى شيئا من الدفء حوله، أو شيئا من الملابس الدافئة، أو مكانا يحتمي به من لسع الصقيع، أو مدفأة يدفع بها شدة البرد عن عظامه وأوصاله. ربما إذا داهمه المرض فقد يتمنى وجود من يُبرئه من مرضه، ويصف له الدواء الناجع. فبأي عزم وتصميم يمكن له التغلب على تحديات الحياة الصعبة؟ لعل الحكيم البوذي هو وحده الذي يعرف الإجابة على هذا السؤال. لقد كانت حالة من الشعور العارض.. تحققت داخل النفس.. ولا أكثر من هذا. وفي الحقيقة.. لقد كانت حالة من الاستسلام المطلق للعجز، سَمِّها سلاما أو سَمِّها موتا، فمهما كان

الاسم الذي تطلقه عليها، فهي لا تستحق أن تكون نيرفانا حقيقية.

ويبدو أن البحث عن السلام من خلال الحرمان من كل ما يتعلق بالحياة، ومن جميع ما يلزم لاستمرارها، قد صار من الأمور الراسخة في كل من الديانتين الهنديتين الرئيستين: الهندوسية والبوذية، وهذا يضارع إنكار الكفاح من أجل البقاء، وبقاء الأفضل. وعند المقارنة بين هذا وسعي الإنسان من أجل تحقيق السلام، فإن هذا يعني فقط الاستسلام وتقبل الهزيمة.

ونحن هنا لا نتحدث عن التعاليم التي أتى بها كل من مؤسسي الديانتين الهندوسية والبوذية، وإنما نحن نبحث مدى صحة الفلسفات التي تطورت عن هاتين الديانتين، بعد مرور آلاف من سنين التدهور والانحطاط، إذ أن كلتيهما قد انحرفت بعيدا عن مصدرها الإلهي. وفي الواقع إنهما اتبعتا نفس السبيل التي اتبعها الزهاد والمتصوفون في بعض الديانات الكبرى في العالم. غير أن هؤلاء لم يفصموا علاقتهم بمبدأ الإيمان بالله تعالى، ولكنهم.. من داخل نطاق الدين الذي يتبعونه.. حفروا لأنفسهم طريقهم الخاصة، التي يمارسون فيها تجاربهم الروحية الذاتية، الناتجة من إلهامات النفس، وليس من الوحي الإلهي.

وفي حالة فلسفة اليوجا في الهندوسية والبوذية، فإنهما قطعتا تماما جميع الروابط، وانفصلتا عن تعاليمهما التقليدية، بغير أن نجد في هذه الفلسفة أي أثر من الأصل. وفي مقابل الوحي الإلهي.. الذي كان هو المصدر الرئيسي للمعرفة والحكمة لبوذا، ظل التركيز خلال العصور المتأخرة يتحول من الاهتمام بالوحي إلى الاهتمام بالتأملات وإلهامات النفس وخلجاتها. ورغم أن البوذية قد بدأت في تعارض تام مع الهندوسية، إلا أنهما.. بطريقة غامضة.. قد اشتركتا سويا فيما بعد في فلسفة وممارسات اليوجا.

ومن المدهش حقا أن نجد ذكر اليوجا لأول مرة في التانتراز *Tantras*

وهي ما يسمى الوثائق الدينية التي تم تدوينها بعد مرور خمسمائة عام من بعد بوذا عليه السلام. ولم يطلع على تلك الوثائق سوى عيون قليلة لأولئك الذين كانوا يقفون على قمة هرمية رجال الدين الهندوسي، بينما ظلت تلك الوثائق في سرية وفي عزلة عن عيون عامة الناس. وللتأكيد على استمرار سريتها.. فقد كُتبت تلك الوثائق بأسلوب رمزي، وبتعبيرات خاصة، بحيث يستحيل على الشخص العادي أن يفهمها. وبعد مرور الكثير من القرون، صارت محتويات هذه التانتراز تحت تصرف الباحثين.. الذين أصابهم الذعر لما وجدوه مدونا على صفحات هذه الوثائق التي تُعتبر كتابات مقدسة، فقد وجدوا أنها تحتوي على أمور في غاية الفحش والدناسة. كما يوجد فيها ذكر المردة والشياطين وصور لأشباح مخيفة. وهي أيضا تطفح بالألفاظ البذيئة التي تتحدث عن الرغبات الجنسية الفاحشة، بشكل تنفر منه المشاعر الإنسانية. وبهذا يتبين أن تعاليم اليوجا المحفوظة في التانتراز لا علاقة بها بتاتا بالكلمات القدسية لبوذا.

وربما يعتبر البعض أن كل هذه الكلمات عن المردة والأشباح الخرافية، وأيضا كل هذه العبارات الجنسية الفاحشة، ليست سوى رموز وكنايات. وربما لا يوجد من بين الرهبان البوذيين الأحياء اليوم من يعرف أسرار هذه اللغة الرمزية. ولعل من كانوا على قمة الهرمية البوذية منذ ألفين من القرون هم وحدهم الذين اخترعوا هذه اللغة، وهم الذين كانوا يفهمون معناها. ولكنهم ماتوا وانتهوا منذ وقت طويل، ولعل زمن التانتراز قد انتهى أيضا معهم. غير أن رياضة اليوجا قد عاشت بعد التانتراز، إذ لا يزال هناك بين الباحثين من يستطيع استخدام علوم اليوجا الغامضة الموجودة في التانتراز.

إنه من الصعب بمكان تحديد الخط الفاصل بين اليوجا.. كما تُفهم وتُمارس في الهندوسية.. واليوجا كما تُفهم وتُمارس في البوذية. وإذا كان هناك بعض الفوارق.. فهي فوارق في المسميات. ومن الممكن تسمية

ممارسي اليوجا نُسّاكًا هندوسًا أو زُهّادًا بوذيين، ولكن حقيقة انعزالهم عن العالم من أجل الله لن تتغير. يمكن إطلاق أي اسم عليهم بنفس المعنى، ولكنه لن يغير شيئا من طبيعتهم الطيبة. ومهما كان ما حققه هؤلاء الممارسون من الديانتين، ومهما كان ما يعتبرونه حكمة واستنارة، فلم يتمكن أحد الأطراف من تغيير وجه العالم من خلال تجاربه الذاتية. وإنه لإهانة لبوذا وكرشنا عليهما السلام أن يُنسبا إلى هذه الفئة. لقد كانا ثوريين يبتغيان إحداث تغيير في الأرض، تماما مثل بقية أنبياء الله تعالى الذين كانت فلسفتهم الهادفة للتغيير الروحاني والأخلاقي.. تنبثق من ينبوع الوحي الإلهي. لقد أعلنوا دعوة نبيلة للكفاح المجيد ضد المفاسد والشرور والضلال، ونفخوا نفير القيام بكفاح بطولي في الحياة.. لم ينحصر في نطاق ذواتهم فقط. لقد شنوا حربا مقدسة في صدام مباشر مع قُوَى الظلام، ظلت مستعرة ومستمرة في العالم الخارجي.. وليس داخل النفس فحسب، وتبع ذلك معركة مريعة من أجل تحقيق البقاء للأصلح. إن تاريخ حياة كل من كرشنا وبوذا عليهما السلام.. تبين بجلاء أنهما كانا ينتميان إلى هذه الفئة. لقد كانا قائدين محاربين ولم يكونا انهزاميين أو من الهاربين المنتحرين. فقد كان الدين الذي يدعو إليه كل منهما هو من وحي الله، ولم تكن تعاليمهم المقدسة من همزات وخطرات النفس، بل أدت تلك التعاليم إلى تشرّف المخلصين من أتباعهم بالإلهام الرباني.

إن ما يفهمه معظم البوذيين المعاصرين عن ديانتهم هو أنها مجرد حكمة، أي بودهي *Budhi*، اكتشفها بوذا خلال تأملاته. وكل ما يعلمونه عن مصدر ديانتهم هو أنها كانت من إلهامات النفس لدى بوذا.

ومن وجهة نظر هؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى، فإن الإلهام النفساني لا يعدو سوى أن يكون تجربة روحانية كثيرا ما يشعر المرء خلالها بالسمو الروحي. وأثناء هذا السمو.. يتملك الإنسان إحساس بالسلام يبدو أنه أقصى درجات الطمأنينة. وعند العودة من هذه الحالة المدهشة إلى الحياة

العادية، يشعر المرء بانطباع عميق بأنه قد اكتسب شيئا.. قد يكون هو الهدف الأسمى من الحياة.. الهدف الذي يبتغي الجنس البشري بأكمله أن يصل إليه.

هذه التجربة النفسية والروحية هي كل ما يمكن لهم أن يفخروا بالوصول إليه من تنوير روحاني وتحرر من ربقة المادة. غير أنها لا تستطيع.. حتى في أسمى درجاتها.. أن تُحدث أي تغيير في حقائق الحياة الواقعية، ولا تستطيع أن تقوم بإصلاح أو تقويم الأشرار والفاسدين. إنها لا تستطيع أن تحول حتى ذرة من دنيا المجهول إلى عالم المعلوم. ولا يمكن لها أن تحول الظلام إلى نور. ولم يحدث أبدا لإلهام الذات وخواطر النفس أن استعادت أسرار الحقائق المجهولة التي دفنت في قبور التاريخ، ولا كانت لها القدرة على أن تثب إلى المستقبل لإلقاء نظرة على ما سوف يقع من أحداث.

إذا حدث أن طُبقت هذه الفلسفة.. الخاصة بالإلغاء الكامل للنفس إلى أن تصل إلى نهايتها المنطقية.. فإنها من المحتم سوف تؤدي إلى انقراض الجنس البشري. ولا شك أن نسبة هذا الهراء من أحاديث النفس وإلهاماتها إلى الحكمة المستنيرة لبوذا عليه السلام والمستقاه من الوحي الإلهي لا يضفي عليه أي شرف، فليست أحاديث النفس هي كأس الحكمة التي شرب منها بوذا وملأ بها باطنه حتى صار من الخالدين.

المراجـــــع

1. LE BON, G., GUIMET, E. (1992) *Mirages Indiens:de Ceylon au Népal, 1876-1886.* Chantal Edel et R. Sctrick, Paris, p.241
2. LE BON, G., GUIMET, E. (1992) *Mirages Indiens:de Ceylon au Népal, 1876-1886.* Chantal Edel et R. Sctrick, Paris, p.240
3. LILLIE, A. (1909) *India in Primitive Christianity.* Kegan Paul, Trench, Trübner & Co, London, p.85
4. LILLIE, A. (1909) *India in Primitive Christianity.* Kegan Paul, Trench, Trübner & Co, London, p.86
5. NORMAN, K.R., (1992) *The group of discourses* (Sutta-Nipata) Vol II. The Pali Text Society, Oxford, pp. 112-129
6. NORMAN, K.R., (1992) *The group of discourses* (Sutta-Nipata) Vol II. The Pali Text Society, Oxford, p. 129
7. MAX MÜLLER, F. (1881) *The Sacred Books of the East.* Vol XI, Clarendon Press, Oxford, p.186
8. MAX MÜLLER, F. (1992) *Dialogues of the Buddha I.* The Pali Text Society, Oxford, p.299
9. MAX MÜLLER, F. (1881) *The Sacred Books of the East.* Vol XI, Clarendon Press, Oxford, p.186